كتاب السموم

لابي جابر ابن حيّان الصوفي

في اواخر شهر مارس الماضي بيع بمدينة لندن ٢٦ كتاباً من المخطوطات و ٨ من المطبوعات وهذه مطبوعة على رقوق في القرن الخامس عشر فبلغ ثمن الجميع ٧٧٨٦٥ جنيهاً اي كان متوسط ثمن الكتاب منها اكثر من ٢٢٩٠ جنيهاً . وقد بيع بعضها باكثر من ذلك كثيراً فبلغ ثمن واحد من الكتب المطبوعة ٨٩٠٠ جنيه وثمن آخر ٤٠٠٠ جنيه . واما المخطوطات فبلغ ثمن واحد منها ٨٠٠٠ جنيه وهو من القرن الثالث عشر او الرابع عشر وبلغ ثمن كتاب آخر ٦٧٠٠ جنيه وثالث ٥٠٠٠ جنيه وهو من مخطوطات القرن الثاني عشر

ولو بيعت المخطوطات العربية التي في دار الكتب السلطانية بمثل هذه الاسعار لبلغ ثمنها ملايين الجنيهات فان فيها نسخاً من القرآن خطت في القرن الثالث الهجري او نحو القرن العاشر المسيحي عدا ما فيها من سائر المخطوطات وبعضها نسخ مؤلفيها انفسهم . ونسخ المؤلفين القديمة تباع في اوربا باثمان فاحشة جداً (١)

ولعل المخطوطات القديمة من القرن السادس الهجري الى العاشر كثيرة في كل دور الكتب في هذا القطر وغيره من الاقطار ولكن النادر منها قليل ومن اندرها فيما نظن كتاب وقفنا عليه الآن وهو كتاب السموم لابي موسى جابر بن حيان الصوفي في تفيد جعفر الصادق وهو من مخطوطات كثيرة ابتاعها حديثاً البحّاثة المدقق احمد باشا تيمور يقال في آخره انهُ كتب بشيراز سنة ثلث وخمسمائة خراجية . وتحت ذلك ما نصهُ « طالعهُ منصور بن علي ونقلهُ لنفسهِ باجمعهِ تعليقاً في

(١) عندنا نسخة من هذا القبيل من تأليف الامير اسامة بن منقذ صاحب قلعة شيزر ولعلها الوحيدة وقد خطت سنة ٥٧٩ هجرية اي سنة ١١٨٣ مسيحية واعدها المؤلف الى ابنه مرهف وعليها بخطه انها هدية اعدها والده اليه . وعندنا ايضاً نسخة قديمة من كتاب المصابيح للبغوي خطت سنة ٦٩٦ هجرية اي سنة ١٢٩٧ مسيحية ونسخة من شرح فصول ابقراط لابن ابي صادق المعروف بسقراط الثاني المتوفى في اواسط القرن الخامس للهجرة وعليها بخط احد ملاكها محمد ابن الهمام الحنفي المتوفى سنة ٨٦١ انها دخلت في ملكه سنة ٨٥٩ هجرية . ويرجح من نوع خطها وتصحيحها انها من عهد المؤلف اي من اواسط القرن الخامس الهجري . ونسخة من عهد الامام علي مالك ابن الاشتر النخعي كتبت سنة ٨٥٨ وكانت من كتب اسفنار بايزيد الثاني

الصفحة الاولى من كتاب السموم مصغرة

الصفحة الأخيرة منه مصغره قليلاً

مقتطف يناير ١٩٢١

امام الصفحة ٤٠

سنة ٦٣٩ هجرية كما يظهر من رسم الصفحة الاخيرة التي صورناها عنهُ بالفوتوغرافيا. وقد دخل هذا الكتاب في ملك كثيرين في ازمنة مختلفة منهم الصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هجرية ومحمد عبد الرحمن الانصاري وقد دخل في ملكه سنة ٨٢٢ واحمد بن علي ودخل في ملكه سنة ٨٣٠ وذلك كلهُ واضح من الصفحة الاولى التي نقلناها عنهُ بالفوتوغرافيا

وقد عبث بهِ العث ولاسيما في اولهِ وآخرهِ فخرقهُ تخريقاً شنيعاً كما ترى من صورتي الصفحتين المشار اليهما فاذا وجدت نسخ اخرى منهُ حتى يعارَض بها ويصحح فهو حري بان يطبع لانهُ كثير الفوائد

وان كان هذا الكتاب لجابر بن حيان الصوفي تلميذ جعفر الصادق كما يقال في اولهِ فهو اقدم الكتب العربية الباقية الى عهدنا لان جابر توفي سنة ١٦٠ للهجرة على ما قالهُ حجي خليفة في كشف الظنون وذلك يقابل سنة ٧٧٦ للمسيح. وهناك رواية ثانية وهي انهُ كان تلميذاً لخالد بن يزيد فهو اقدم من ذلك لان خالداً توفي سنة ٨٥ للهجرة . وقد اختلفت الاقوال في مستقر رأسهِ فقيل انهُ ولد في طرسوس وقيل في الكوفة وقيل بل ولد بحرّان في القرن الثالث للهجرة وكان من الصابئة

والكتاب مبدؤ هكذا

« بسم الله الرحمن الرحيم قال ابو موسى جابر بن حيان الصوفي قد ارتسمتُ اطال الله بقاءك ما امرتَ بهِ واحدثت من الشرح ما علمت انك من الفهم بحسبهِ وانتهيت الى ارادتك واتيت على حاجتك وارجو ان تبلغ بهِ رغبتك وتنال منهُ بغيتك وتكون بهِ راضياً ولادبك كافياً ان شاء الله وبهِ القوة . قال بعضهم ان السم جسم كولي ذو طبائع غالبة مفسد لمزاج ابدان الحيوان ضرباً من الفساد . وقال آخر انهُ مزاج طبائع غالبة لتراب الحيوان بذاتهِ وقال بعضهم بانهُ مزاج قوة مزاج غالب مفسد ومصلح . فهذه اراء الناس في حدهِ . فاما غرضنا في هذا الكتاب فهو الابانة عن اسماء انواع السموم وكنه افعالها وكمية ما يدق منها ومعرفة الجيد من الردي ومنازل صورها والاعضاء المخصوصة المقابلة لجوهرية خواصها واذكر مع ذلك السم الذي يكون نافذاً بفعلهِ في سائر البدن والمهلك بجملتهِ »

وختم فاتحة الكتاب من الحمدلة والصلاة والتسليم يحمل على الظن ان المؤلف

كان من الصابئة كما قال بعضهم ولعل البسملة زيادة من النساخ

والكتاب مقسوم الى خمسة فصول الاول في اوضاع القوى الاربع وخلطها مع الادوية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغير الطبائع والكيموسات المركبة منها ابدان الحيوان

والثاني في اسماء السموم ومعرفة الجيد منها والردي وكمية ما يسقى من كل واحد منها وكيف يسقى ووجه ايصالها الى الابدان

والثالث في ذكر السموم العامة الفعل في سائر الابدان والتي تخص بعض ابدان الحيوان دون بعض والتي تخص بعض الاعضاء من ابدان الحيوان دون بعض

والرابع في علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة عنها في الابدان والانذار فيها بالخلاص والمبادرة الى علاجه والحكم بالاياس مما لا حيلة فيه

الخامس ذكر السموم المركبة وذكر الحوادث الحادثة منها

السادس في الاحتراس من اخذ السموم قبل اخذها فاذا أُخذت لم تكد تضرّ وذكر الادوية النافعة من السموم اذا شربت من قبل بعدم الاحتراس منها

وقد قسم السموم الى حيوانية ونباتية وحجرية وذكر من السموم الحيوانية مرار الافاعي ومرارة النمر ولسان السلحفاة وذنب الايل والارنب البحري والضفدع والذراريح والعقارب والكلب الكلب

ومن السموم النباتية البيش وقرون السنبل والافيون والبنج الاسود والشوكران والشيلم والجوز مائل والكمثرى وبزر قطونا والقطر والكمأة وصمغ الشذاب واللاذر والحنظل والدفلى والخربق والقنا والبيروح وعنب الثعلب والحلتيت

ومن السموم الحجرية الزنجار والزيبق والزرنيخ والنورة والزاج والشب والطلق وبرادة الحديد وبرادة الذهب

ثم اسهب في وصف كلٍّ من هذه السموم على حدة مثال ذلك قولهُ عن الزنجار ان هذا الحجر قد ينقسم في عمله واثار افعاله في اجسام الحيوان الى ثلثة اقسام حسب انقسام اصنافه نوعه وذلك ان منهُ معدنيًّا ومنهُ متخذاً بالمهنة والعمل . والمتخذ بالعمل ينقسم قسمين فالاول وهو اجود اصناف الزنجار ما اتخذ من الرسخنج (؟) والنوشادر والخل والثاني يتلوهُ وهو ما اتخذ بالخل والملح او

بشحيرالخل وصفائح النحاس .وجميع انواعه قاتل مقرح للامعاء مسحج لها مؤلم للاحشاء والمعدة ألماً شديداً . وقد يقطر منه هذا الزنجار ولاسيما ما كان من النوشادر فيكون من مائه سم قاتل ابلغ من هذه على ما سنشرح الحال فيه في الفصل التالي لهذا الفصل ان شاء الله

وقد اكثر المؤلف من ذكر فلاسفة اليونان واطبائهم كأنه اعتمد عليهم ولاسيما في الكلام العلمي عن فعل السموم كقوله « قد اطلق بقراط وجالينوس واندروماخس وسائر اصحاب المهنة الطبية انهُ لا شيء في اجسام الحيوان من الاخلاط أكرم من الدم وانهُ قاعدة البدن » وقوله في مكان آخر . « قد اجاد ذلك ارسطوطاليس وفوثاغورس اما ارسطوطاليس فقال في قاطيغورياس ان النباتية الفصول متباينة الذوات والحدود وهذا قول حق . » وذكر في الكلام على الترياق قصة مشهورة قال « فاما جالينوس فانهُ حكى عن اندروماخس انهُ قال ان الذي دعاني الى علم الترياق اشياء منها انني كنت مجتازاً من المدينة الى ضيعة لي اريد ان اقف على ما عملتهُ الفعلة رأيت رجلاً جالساً يبول اذ خرجت حية فنهشتهُ فقام يعدو فقلنا لهُ ما بالك فقال نهشتني حية فقلت فاعدوك . وقد كنت سمعت ان بعض الحيات اذا هي نهشت الانسان منعتهُ من الجلوس والقت عليهِ الرعدة والفزع والعدو .فقال ادخل الى هذه الشجرة فآكل منها ليزول وجعها عني.فقلت وما تلك الشجرة فقال الغار فقلت والغار ينفع من سم الحيات فقال نعم فعدوت معهُ فالتقط شيئاً من جوز الغار وما زال يشققهُ ويأكل حبهُ حتى برأ . وما زال يعدو بين يدي الى القرية وهي في عافية لا يحس من نهش الحية بشيء . فتفكرت في ذلك وان اعمل من حب الغار دواء يبقى على الاوقات ويصل الى مواضع نهش الحيات بقوته فصحت الغار ومجنتهُ بالسلم كان من زيادته فيه ما كان مما اوضحناه في كتاب الطب الكبير »

والكتاب كلهُ على هذا النسق من الاستشهاد بفلاسفة اليونان واطبائهم . فان كان لجابر بن حيان الصوفي كما قيل في اولهِ فذلك يؤيد ما كتبهُ ابن النديم في كتاب الفهرست من ان خالد بن يزيد الاموي امر بنقل كتب العلوم من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية . ولا يبعد ان يكون جابر من النقلة